

بلاغة الحجاج في الخطاب القضائي
The rhetoric aspect of argumentation
in juridical discourse

أ. سامية بو عاصم^S
المشرفة: أ.د. ذهبية حمو الحاج**

تاريخ الاستلام: 2020-09-10 تاريخ القبول: 2020-12-09

ملخص: عرف الخطاب الجزائري المعاصر أشكالاً مختلفة ومتنوعة من التعبير. مرده اختلاف زوايا رؤى المخاطبين واختلاف تخصصاتهم، وذلك ما أنتج لنا عدة أشكال من الخطابات كالخطاب التعليمي والخطاب السجالي والخطاب الاقتصادي والخطاب الصحي والخطاب الصحفي والخطاب القضائي الذي هو موضوع بحثنا. وعليه، يهدف هذا البحث إلى دراسة الخطاب القضائي دراسة حجاجية، وذلك، نظرا لقلة الدراسات التي عالجتة

^Sجامعة مولود معمري، تيزي وزو، البريد الإلكتروني:

Beuacemsamia@gmail.com

(المؤلف المرسل)

^{**} جامعة مولود معمري، تيزي وزو، البريد الإلكتروني: Hamoulhadj-d@yahoo.fr

(المؤلف المرسل)

في جانبه الحجاجي. ومن النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة، أن الحجاج في الخطاب القضائي يبحث فيما هو نسبي ومحتمل، ويكون في الأمور المتنازع عليها، وأنه يقوم على المشاركة والتعاون من أجل الوصول إلى حل أي النتيجة.

كلمات مفتاحية: بلاغة؛ حجاج؛ خطاب قضائي؛ استعارة.

Abstract: Contemporary Algerian discourse has known varied forms of expression. This is due to the different angles of views of the speakers and their different specializations, and this is what has produced for us many forms of speeches, such as polemical speech, press speech and judicial speech, which is the subject of our research. Accordingly, this research aims to study the judicial discourse an argumentative stud. Among the results reached through this study is that the argumentation in the judicial discourse discuss what is relative and probable, and that it is based on participation and cooperation in order to reach a solution.

Keywords: rhetoric, argumentation, speech legal, pleading, metaphor.

1-المقدمة: عرف الخطاب الجزائري المعاصر أشكالاً مختلفة ومتنوعة من

التعبير، مرّده اختلاف زوايا رؤى المخاطبين واختلاف تخصصاتهم. وذلك ما أنتج لنا عدّة أشكال من الخطابات كالخطاب التعليمي والخطاب السّجالي والخطاب الاقتصادي والخطاب الصحفي والخطاب القضائي الذي هو موضوع بحثنا.

تعد الخطبة القضائية من أقدم الخطب التي عرفت البشرية كونها مرتبطة بالحياة اليومية للناس من خصومات ومنازعات ومشاجرات، فلا تقوم من دون مشاركة وإشراك الغير، من القاضي ولجنته ومحامي الدفاع والادّعاء (المدّعي والمدّعى عليه) والنائب العام، فجميعهم يتعاونون في بناء الخطاب من أجل الوصول إلى النتيجة أو الحكم النهائي. ولا تقوم هذه المشاركة من دون حجاج ولا يقوم الحجاج من دون بلاغة، إذ هو لبها وغايتها في الوقت نفسه، فغاية الحجاج في الخطبة القضائية هو إدعان القاضي، فيكيف يكون هذا الإدعان؟ وماهي الآليات والتقنيات الحجاجية التي يعتمدها المحامي من أجل إدعان القاضي وإثبات براءة موكله؟ هذه الأسئلة وأخرى تشكل في مجملها إشكالية هذه الورقة البحثية.

وعليه، نختار مدونة للتحليل مستوحاة من واقع الخطابات القضائية الجزائرية بهدف تتبع مسار وطبيعة علاقة البلاغة الجديدة بالحجاج في الخطبة القضائية

فنستند في ذلك إلى ما توفره البلاغة والحجاج من آليات ومعاول وتقنيات لتحليل الخطابات.

على أن نقسم البحث إلى محورين:

المحور الأول: الجهاز المصطلحي للعنوان؛

تعريف البلاغة؛

تعريف الحجاج؛

تعريف الخطاب القضائي.

المحور الثاني: تجليات بلاغة الحجاج:

التجليات البلاغية الحجاجية.

التجليات التداولية.

2. المحور الأول: الجهاز المصطلحي للعنوان:

1.2 في تعريف البلاغة: من أهم العلوم المكتملة في الدرس العربي القديم البلاغة، إذ تمثل علما قائما بحد ذاته تناولت كل ما ارتبط باستعمال اللغة وممارستها، فعدت من أحسن العلوم التي تبرز من خلالها العلاقات التداولية في اللغة بامتياز.

فإذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها، هي دراسة اللغة أثناء الاستعمال، فإن البلاغة تعرّف بأنها " فن القول " ¹، أي المعرفة باللغة أثناء استعمالها، حتى أن بعض الباحثين لم يفرقوا بين التداولية والبلاغة، والمتمعن في أعمال اللغويين

الغربيين أمثال أوستين، يكتشف أنها تتلاقى في كثير من مفاهيمها مع البلاغة العربية القديمة، لاسيما في دراستها لباب المعاني ضمن الخبر والإنشاء.

كما أصبحت تعرّف على أنها " لسانيات ذهنية عامة، بوصفها تأملا في اللغة والفكر وتتعلق بكل اللغة"²، ذلك أنها تنظر إلى كل ما يحيط بالعملية التخاطبية من أحوال المتخاطبين ومقاصد المتكلمين إلى الفعل الإقناعي، " فالبلاغيون العرب، وإن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي، حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة، فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال السامعين"³.

2.2 في حد الحجاج في الخطاب القضائي: وإذا رمنا الحديث عن الحجاج

في الخطاب القضائي فإنه ذو طبيعة خاصة، لذا فإن تعريف الحجاج في هذا النوع الخطابي يأخذ منحى خاصا.

فأنجع تعريف للحجاج في الخطاب القضائي هو الذي يجمع بين الجانب الغائي الحجاجي والجانب التداولي التواصلي، كون أن الخطاب القضائي هو خطاب حجاجي تداولي، فنأخذ بتعريف طه عبد الرحمن للحجاج، والذي يرى فيه "أنه فعالية تداولية جدلية"⁴، تداولي لأن طابعه "فكري مقامي واجتماعي يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال والظروف والمعارف المشتركة، وجدلي لأن هدفه إقناعي"⁵. فتداولي لأنه ينتج عن تفاعل الأشخاص فيما بينهم في محاولة إقناع الواحد فيهم الآخر، فهو آلية من آليات محاورة الأطراف المشاركة في عملية التواصل لمناقشة الأفكار المتعارضة، واستعراضا للحجج والحجج المضادة، في سياق تواصلي خاص، مما يخلق تفاعلا بينهم يؤدي إلى إذعان أحد الأطراف. وأنه يتداول بين هيئة الدفاع (محامي المدعي ومحامي المدعى عليه) وبين

القاضي ولجنته والنائب العام، وهذا التفاعل الخطابي وتصارع الحجج هو ما يكسبه المظهر التداولي.

وأما بيرلمان فقد حاول أن يقدم مفهوما جديدا للحجاج من خلال مصنفه البلاغة الجديدة فالبلاغة الجديدة عنده "هي دراسة التقنيات الخطابية التي تروم التحريض على الإذعان للدعوى المقدمة لسامعة ما أو الزيادة فيه"⁶، فغايتها غاية الحجاج فيها، وهي "أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة"⁷ فتصبح غاية الحجاج هي إنهاء الحجاج.

3.2 . في حد الخطاب القضائي:

يعد الخطاب القضائي جزءاً من خمسة أجزاء من الخطابات التي تشكل مجتمعة مع الخطاب القانوني، و"يشمل الخطاب القانوني نصوص القوانين وشروحها والأحكام الصادرة عن المحاكم المختصة والمرافعات والدراسات القانونية التحليلية والتاريخية والمقارنة"⁸، يغدو بذلك الخطاب القانوني أعم من الخطاب القضائي، وتنطبق عليه مقولة علاقة الجزء من الكل، فالخطاب القضائي جزء من الخطاب القانوني.

وهذا التعريف وفقاً للتقسيم الذي وضعه "كورني" في مصنفه اللسانيات القانونية 1990، ويعتبر الخطاب القضائي خطاباً منبثقاً عن الخطاب القانوني قائماً بذاته مستقلاً عن الخطاب التشريعي والقانوني معاً، "ولنقل، إذا جوز لنا

نقاد الأدب ذلك، هو جنس (genre) مستوفى لشروط مقولة الجنس الكتابي⁹. وله خصائص تفرده عن سائر الخطابات الأخرى، سواء في طبيعته أم عناصره. فطبيعة الخطاب القضائي أنه خطاب إلزامي لا يحتمل إلا التطبيق، كونه صادرا عن القاضي يوجب تطبيقه، فهو إذا ذو طبيعة إجرائية، وهذه الصفة هي التي تجعله منفردا عن سائر الخطابات القانونية الأخرى، وتكشف عن جانبه الحجاجي الإلزامي، وهي بؤرة الحجاج فيه ومنتهاه.

3. المحور الثاني: تجليات بلاغة الحجاج في الخطاب القضائي:

إن علاقة البلاغة بالحجاج إشكال قديم قدم المبحثين، ولا نقصد بمصطلح "بلاغة الحجاج" الذي جاء في عنوان البحث -بلاغة الحجاج في الخطاب القضائي- البلاغة المعيارية القديمة التي تحكم بجمال النص وقبحه وفق علوم البلاغة القديمة الثلاثة التي حددها السكاكي، فذلك مشغل بلاغي صرف، ولكن نقصد بها البلاغة الجديدة بما هي اقناع وامتناع معا، إقناع للعقل وإمتناع له. وما توفره تلك الأساليب البلاغية من قوة حجاجية للفظ، أي تبيان علاقة الأساليب البلاغية بحجاجية الخطاب، وكيف يمكن مثلا: للتشبيه والاستعارة والمجاز باعتبارها أوجهًا بلاغية أن تكون حجة أو تقنية حجاجية وتصنف بذلك ضمن التقنيات الحجاجية المشكلة لحجاجية الخطاب القضائي، أي أن تصنف ضمن الحجج المؤسسة لبنية الواقع.

1.3 المظهر البلاغي الحجاجي:

فإذا كانت للغة وظائف عدة فإن الحجاج في الخطاب القضائي يؤدي وظيفة من وظائف اللغة وشكلا من أشكال التواصل، ويظهر هذا الدور من خلال سعي المحامي إلى التأثير على القاضي بجلب انتباهه أولا وكسب تأييده ومن ثمّة إقناعه.

وانطلاقا من الخطاب القضائي الذي نعتبره نصا حجاجيا بامتياز يمكننا أن نستخلص بعض سمات النص الحجاجي فهو نص " يسعى إلى الإقناع ويقدم البراهين التي تسمح لفكر ما أن يعلو على فكر أو غلبة موقف أو رأي على رأي"¹⁰. وهذا ما نجده في المرافعات التي أقيمت على مسامع القاضي في مجلس قضاء تيزي-وزو، محكمة الجنايات، فكان كل محام يرافع بما يجود لسانه من كلمات رنانة وحجج وبراهين دامغة، تصارع الواحدة منها الأخرى.

وتعد اللغة "بذاتها ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها لأن المتكلم يستخدم الوحدات اللسانية حسب ما يريد إبلاغه من أفكار وبالقدر المقصود يبني هذه الوحدات وفقا لأغراض التواصل المختلفة"¹¹. وهذا ما نجده في المرافعة، إذ يحاول كل طرف توظيف اللغة لصالحه والتلاعب بمفرداتها ومعانيها وأساليبها ووظائفها من أجل تحقيق غايته والتي تتخذ من الحجاج وسيلة لتحقيق الإقناع وإذعان القاضي أو الجمهور مهما كانت طبيعته ونوعه.

ومنه تظهر الوظيفة الحجاجية للغة، فنحن نتكلم عامة من أجل محاجة الآخر وإقناعه، وهذا ما ذهب إليه جون ميشال آدام حين قال: "أنه يمكن أن

يؤدي الحجاج الوظيفة الرابعة أو السابعة من وظائف اللغة¹²، إلى جانب وظائف اللغة الأخرى.

وإذا ما أردنا الكشف عن تجليات بلاغة الحجاج في الخطاب القضائي، فإننا نستخلصها من خلال بعض الأساليب الإنشائية التي يزر بها هذا النوع الخطابي. ولنتمعن في مقدمة المرافعة التي ألقاها محامي الدفاع أمام القاضي ولجنته في قضية القتل العمدي مع سبق الإصرار والترصد، ونحاول رصد المظاهر البلاغية ذات الدور الحجاجي، إذ يقول:

"سيدي الرئيس، إن القضية التي بين أيدينا قضية حياة إنسان أفنى عمره في خدمة وطنه وشعبه الأبوي، بحكم منصبه الحساس في الشركة الوطنية (...)، إننا ندافع اليوم عن مظلوم نسب إليه جرم ... جرم القتل العمد...، حقا هذه القضية مأساوية، ونحن بدفاعنا عن هذا المواطن الصالح لا نحاول تظليل العدالة أو تغيير الحقيقة ونفي التهم، ولكن وجدنا من واجبا بل من واجب العدالة أيضا أن تمعن النظر في حق هذا المتهم البريء....

سيدي الرئيس، إن موكلي لم يسبق له أن تعامل مع الضحية، وأنه لم يتلق منه أي مكافأة عن عمله، بل هو يعتبر عمله واجبا يؤديه خدمة لوطنه، فهو لم يقبل الرشوة التي عرضت عليه من طرف أخ الضحية، وإن كانت له علاقة به كما يدعي محامي الادعاء، فلما تقدم موكلي بنفسه إلى جهات الدرك الوطني من أجل الإبلاغ عن الجثة...

وعليه، نقدم ملاحظات نرجو منكم سيدي أخذها بعين الاعتبار، وإعادة النظر في حكم موكلي، الذي نراه بريئاً من كل التهم المنسوبة إليه.

ولما كان من شروط نجاح الخطبة القضائية أن تأتي ملمة بأحداث ووقائع القضية، وأن تفتتح بشيء يأسر الانتباه، إضافة إلى تضمينها النتيجة "ن"، أي تحقيق غايتها التي من أجلها أقيمت المحكمة، فإن محامي الدفاع احترام هذا التسلسل في افتتاح مرافعته من خلال هذه المقدمة القصيرة، فقد بدأها بإبراز المكانة الاجتماعية لموكله وذلك حتى يبعد عن ذهن القاضي تلك الصفات السلبية التي رسمها محامي الادعاء عن المتهم، فقدمه على أنه مواطن صالح محب لعمله مخلص لوطنه، كيف له أن يخون الأمانة؟

ثم انتقل مباشرة إلى تحديد هدفه من المرافعة، وهو "المطالبة ببراءة موكله". والذي نمثله في النتيجة "ن"، فخاطب القاضي مباشرة، إذ قال: "وعليه، نقدم ملاحظات نرجو منكم سيدي أخذها بعين الاعتبار، وإعادة النظر في حكم موكلي، الذي نراه بريئاً من كل التهم المنسوبة إليه".

ومن خلال هذه الانطلاقة، استطاع محامي الدفاع أن يحقق هدفه الأول والمتمثل في جذب انتباه القاضي واستمالته، وبذلك قد خلقت هذه الانطلاقة شيئاً من القبول لدى المتلقي أو جمهور السامعين. والملفت للانتباه أن محامي الدفاع، استطاع تكييف الأحداث لصالحه وشد انتباه القاضي، فلما أدرك أن كلامه قد أحدث قبولاً مبدئياً لدى القاضي راح يفصح للقاضي ومن دون تردد أو إبطاء عن

غايته من هذه المرافعة وهي المطالبة ببراءة موكله، أي أنه أعلن عن هدفه بأسلوب صريح ومباشر.

ويحدث كل هذا في وقت وجيز خلال إلقائه لمرافعته، فهو يرفع وفي الوقت نفسه يراقب ردّة فعل القاضي، وما يحدثه كلامه من أثر في نفسية القاضي ولجنته، وذلك من خلال متابعة تلك العلامات التعبيرية التي تظهر على وجوههم، أو من خلال حركات هز الرأس أو اليد فاستغلها المحامي لصالحه وكل هذا بفضل إتباع المحامي خطة حجاجية دقيقة، تهدف إلى إذعان القاضي وتحقيق الاقتناع.

فمن مميزاته أنه غالبا ما يبدأ بسؤال، ليس الهدف منه البحث عن الإجابة. بل أن الإجابة تكون متضمنة فيه، فيخرج الاستفهام من استفهام حقيقي إلى استفهام مجازي غرضه التكرير، ومثال ذلك سؤال ألقاه محامي الدفاع وهو يرفع في قضية القتل العمد، إذ طرح سؤالاً غير مباشر يستلزم على القاضي والجمهور فهم الإجابة، إذ يقول:

سيدي الرئيس: كيف لا أدافع عن موكلي؟ وهو لا يملك مالا ولا يملك سلاحا أبيض؟ هل يمكن الفقر سببا لإدانة موكلي؟، سيدي الرئيس، هل يوجد دليل أنه كان يترصده؟، هل يوجد دليل أنه كان يتعاطى المخدرات؟ سيدي الرئيس: هل يوجد دليل يدفعه إلى القيام بذلك العمل؟، سيدي الرئيس: موكلي رب أسرة، ويعيل

والديه...، ويشهد جميع سكان الحي على صدقه ونقائه ولطفه، فكيف له أن يحمل سلاحا ويقتل إنسانا؟ ... كيف يمكن لإنسان ضعيف قتل نفس غريبة؟ ... نلاحظ أن المحامي اعتمد أسلوب الاستفهام والتكرار ومناداة القاضي في كل مرة بغرض لفت انتباهه واستعطافه. وحتى يحقق المحامي غاية الإقناع لابد أن يتصف ببعض الصفات التي تساعد على إنجاح خطابه، ف"نجاح المحامي وفشله يرجع إلى أمرين رئيسيين: جودة المعلومات التي يقدمها أو ضحالتها وحسن إلقائه أو ضعفه، فالمحامي المطلع الذي يمد القاضي بمعلومات جديدة غير الذي يكرر معلومات يعرفها السامعون، والذي يلقي مرافعته بطريقة فنية معبرة موحية، غير الذي يسرد المعلومات سردا، وفن الخطابة هو فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة"¹³، فيبقى هدف المحامي من المرافعة أمام القاضي هو إذعانه بأي وسيلة كانت سواء كانت حججا منطقية أم عقلية أم عاطفية. فخطابه مؤسس على هذه الحجج ولا يقوم إلا بها، مستعينا في ذلك بما تؤديه اللغة من وظائف ومن بينها الوظيفة الحجاجية.

من خلال نص الخطبة هذه، تبدو قصيرة استوفت جميع شروط المقدمة من حيث الشكل والمضمون، فقد جاءت قصيرة ملمة بالقضية، انطلق فيها المحامي بطرح سؤال على أعضاء المحكمة، لم يكن هدفه البحث عن الإجابة، بل هو استفهام استنكاري، خرج من غرض استفهام طلبي إلى استفهام غير طلبي غرضه التعجب والاستنكار. ويعد أسلوب الاستفهام سواء أكان حقيقيا أم مجازيا الأسلوب

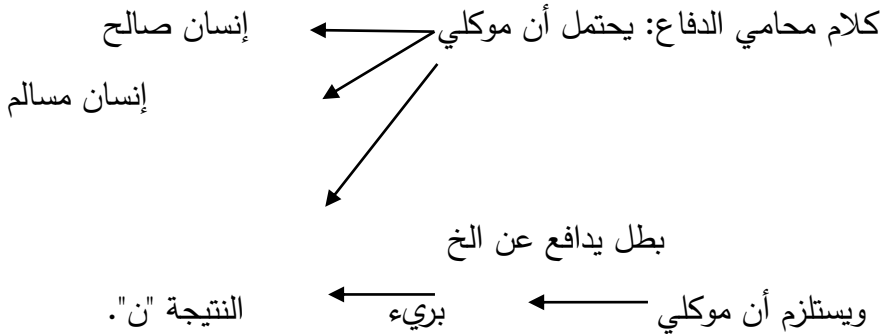
الأكثر تداولاً في المرافعات القضائية، وكثيراً ما يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية يقتضيها المسار الحجاجي للمرافعة. قد يكون بهدف تشويق القاضي ولجنته، فالمحامي يعمد إلى طرح أسئلة يجيب عنها لاحقاً في نهاية مرافعته، كما قد يعمد إلى طرح مجموعة من الأسئلة دون الإجابة عنها، بل يكون الجواب متضمناً فيها، يدفع القاضي إلى استنتاجه، وهذا ما فعله المحامي في القضية السابقة، إذ طرح مجموعة من الأسئلة لم يجب عنها، بل ترك القاضي ولجنته وجمهور السامعين يستنتجون الإجابة، وعادة ما تنصب هذه الأسئلة في محور براءة المتهم.

كما يمكن أن تؤدي غرضاً آخر هو شد انتباه القاضي ولجنته وهو شرط أساسي لنجاح أي مرافعة. وذلك حتى يثير في القاضي ولجنته وجمهور السامعين حب الاستطلاع لمعرفة الجواب وهو بذلك يشد انتباههم جميعاً، وهذا العنصر - شد الانتباه - شرط أساسي وأولي في نجاح أي مرافعة.

والملاحظ في هذه المرافعة تعدد الأساليب الإنشائية والصور البيانية التي اعتمدها المحامي وأدائها لأغراض مختلفة تخرج عن أغراضها الأصلية كالاستتكار والنفي والتوبيخ والمدح وغيرها من الأغراض الإنشائية الأخرى. وعندما تأكد المحامي من شد انتباه القاضي ولجنته، وذلك بعد اعتماده أسلوب الاستفهام، راح يغير من أسلوبه ليتبنى أسلوب المدح، ويتضح هذا الأسلوب. حين مدح محامي الدفاع موكله ولكن بأسلوب غير مباشر، حيث قال: وانتقضت

من أعماقي وتمنيت لو دافعت عن هذا المتهم ليس أمام ساحات القضاء الشريفة بل تمنيت لو دافعت عنه في ساحات القتال الشرسة التي خاضها مع أناس لا يعرفون طريقا إلا إلى الظلم والعدوان.

فقدم موكله على أنه بطل من الأبطال المدافعين عن قوة الخير أمام قوة الشر، فرسم له صورة مثالية تجسد الحق والخير وكل ما هو مسالم، وإن كان وراء هذا الكلام قصدا ضمنيا يتمثل في براءة موكله، فهو يجبر ضمنيا القاضي ولجنته وجمهور السامعين على الإقرار ببراءة موكله وهي النتيجة "ن" التي يرمي المحامي تحقيقها من خلال مرافعته، إلى أن يعبر فيما يليه وبصريح العبارة عن براءة موكله فيقول: وفي الحقيقة فإن المتهم في هذه القضية يعتبر مجنيا عليه.... ووقائع هذه القضية تقود بأكملها إلى براءة موكلي من كل التهم المنسوبة إليه.



وقد عمد محامي الدفاع في هذه المرافعة إلى تدعيم كلامه بقرائن لغوية تمثلت في التكرار، أي تكراره لسؤال: كيف لا أدافع عن موكلي وهو...."، فقد تكرر هذا السؤال ثلاث مرات متتالية، وكل هذا من أجل شد انتباه الحضور والتأكد من إصغائهم لما يقول وتمهيدا لتقبل النتيجة "ن" من طرف القاضي وتأكيدها على صحتها. وتتمثل النتيجة "ن" في براءة موكله.

وعليه؛ تكون هذه الأساليب الإنشائية تمهيدا للنتيجة "ن" إن لم نقل أنها تضمينا لها، على أن تكون المقدمة نقطة انطلاق الأحداث، ونعتبر "المقدمة" معطى أوليا وأساسيا في الخطبة القضائية، لقيامها على تشخيص الأحداث والوقائع وتقديمها تقديمًا حجاجيًا قائمًا على خطة حجاجية قوية ودقيقة، معتمدة في ذلك على ما توفره اللغة من عناصر لسانية قوامها الروابط والعوامل الحجاجية إضافة إلى عناصر غير لغوية من إشارات وإيماءات وطريقة عرض الأحداث والوقائع والحجج والحجج المضادة.

وهذا ما لمسناه في خطاب المحامي وخطاب القاضي في قضية القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، إذ قدمت حجج كانت بعضها منطقية خاضعة لمنطق العقل وتسلسل الأحداث والوقائع تنطبق عليها صفة الصدق أما بعضها الآخر فكانت حججًا تتراوح بين شبه منطقية وبين حجج بعيدة عن الحقيقة وإن كانت حججًا قد تبدو منطقية أكثر منها صادقة، إذ أن طبيعة الحجاج في الخطاب

القضائي لا يشترط فيه صفة الصدق وصحيح أو كاذب أو خاطئ بقدر ما يبحث في مدى توافق الحجج مع منطق العقل.

2.3 التقنيات الحجاجية في الخطاب القضائي:

ولدراسة التقنيات الحجاجية في الخطاب القضائي عامة وفي المرافعة خاصة لابد من العودة إلى التقنيات والمعاول التي عالجت الخطاب القضائي في جانبه الإجرائي، وقد قدم شايم بيرلمان وتيتيكا التقنيات التي تمكننا من معالجة الخطاب القضائي معالجة إجرائية، في القسم الثالث من كتابهما، ويعد هذا القسم أهم قسم جاء في الكتاب. وهي تقنيات حجاجية يواجه بها المتكلم مخاطبه بغرض إقناعه حيث قسمها إلى مجموعتين كبيرتين هما: الحجج القائمة على تقنية الوصل (Liaison) والحجج القائمة على تقنية الفصل (Dissociation).

وتعد العناصر البلاغية من بين التقنيات الحجاجية التي يستعملها المحامي من أجل إقناع أو محاولة إذعان القاضي، وتتمثل هذه العناصر في المجاز والمثال والاستعارة وهي صنف من أصناف التقنيات الحجاجية وتصنف ضمن الحجج المؤسسة لبنية الواقع، كما صنفها بيرلمان وتيتيكا في كتابهما: مصنف في الحجج.

وعليه تتبلور الإشكالية، كيف تستطيع الاستعارة تحقيق وظيفة حجاجية يستغلها المتكلم للتأثير في المخاطب وإقناعه، رغم أنها تنتمي إلى الأساليب البلاغية (علم البيان)؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن للاستعارة أن تدعم طاقة القول

الحجاجي، وبالتالي تثبت قدرتها الإقناعية، فنعدها حينئذ من وسائل الحجاج تؤدي وظيفة التأثير والإقناع؟

2.3 حجاجية الاستعارة: تركز الاستعارة على المستعار منه، الذي يمثل مقصدية المتكلم، لتحقيق وظيفة الإقناع وبالتالي يمكن أن نعتبرها ذات قوة حجاجية، "مفهوم القوة الحجاجية يرتبط أساسا بالسياق وبمقاصد المتكلمين، ولا يمكن الحديث عنه خارج هذا الإطار"¹⁴، ويحيلنا مفهوم القوة الحجاجية إلى مفهوم يكون أشد الارتباط به، هو مفهوم السلم الحجاجي، الذي ترتب فيه الحجج بحسب قوتها، من خلال ورودها في سياق معين، فبحسب وجهة نظر ديكر و فإن " (أ) عبارة عن حجة في (ن)، ومثله كذلك، نعتبر (ب) كحجة منجذبة في (ن) وليس العكس، قياسا إلى فئة حجاجية، تحكمها علاقة ترتيبية، نسميها سلم حجاجي، والذي نمثل له بهذا المخطط

(ن)



(ب)

(أ) " 15

في هذا المخطط يمكن أن نتحدث على قوّة الحجج، فالحجة المنجذبة نحوى الأعلى تكون أقوى من الحجة من التي سبقتها، وبعبارة أخرى "فإن السلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج"¹⁶، يسمح لنا بالحديث عن "حجة أقوى و الأخرى أضعف" (19 Ducrot, 1980, p). فلنأخذ المثال التالي:

يقول محامي الدفاع مدافعا عن موكله: سيدي الرئيس: لما وصل موكلي إلى البئر رفقة صديقه وجدا جمعا من الناس حوالي ثلاثة أو أربعة من الأشخاص فعائنا البئر وشاهدا آثار الدم على جدران البئر وبعدها اتصلا بالحماية المدنية. لنمثله على السلم الحجاجي:

- "ن": موكلي لم يشارك في جريمة القتل
- الاتصال بالحماية المدنية.
- جمع من الناس (شهود).
- آثار الدم على جدران البئر.

فإذا ما مثلنا هذا القول في السلم الحجاجي، فإن القول الأخير " موكلي لم يشارك في جريمة القتل " سيرد في أعلى درجات السلم الحجاجي، وبالتالي يعد أقوى دليل على أن المتهم لم يرتكب جريمة القتل، فقوّة الحجة التي تميز بها القول الأخير أهله ليكون في أعلى مراتب السلم، حيث أن المحامي يريد أن

يظهر براءة موكله، فقدم حججا منطقية متسلسلة ومتراصة. حيث رتبها من الحجة الأقوى إلى الحجة الأضعف وربط بينهم بواسطة الروابط الحجاجية التي زادت من تماسك الخطاب وانسجامه.

ويرتبط مفهوم السلم الحجاجي بمفهوم التوجه الحجاجي L'orientation argumentative، الذي يتجلى من خلال الروابط الحجاجية التي تعمل على توجيه الخطاب الحجاجي وفق مقاصد وأهداف المتكلم، إذ أن ترتيب الحجج في السلم الحجاجي خاضع للعامل أو الرابط الحجاجي ومراعاة لموضوع وغاية المتكلم ومقتضيات المقام. كما أن مفهوم السلم الحجاجي يستدعي جميع مستويات اللغة: المعجمي، الصرفي والبلاغي. على أننا نركز على المستوى البلاغي.

3-2-ج-سلمية النظام البلاغي: ونقصد بـسلمية النظام البلاغي ما يوفره المكوّن البلاغي للملفوظ من قيمة مضافة عبر تلوّنات جهازه ليحتل درجة مهمة من السلم الحجاجي، وبالتالي يكون ذا طاقة حجاجية تدفع المتقبل إلى الإذعان والتسليم¹⁷، فتعد الاستعارة ضرباً من ضروب التقنيات الحجاجية التي يعتمد عليها المحامي من أجل الدفاع عن موكله.

وعليه، لم تعد الاستعارة مجرد صورة بيانية يؤتى بها لزخرف الكلام، بل أصبحت تؤدي وظيفة إقناعية/ حجاجية ناتجة عن التفاعل القائم بين أطراف حجة التمثيل، أي بين الحامل والموضوع، وبما أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه فهذا يعني أنها مشتقة من التشبيه أو التمثيل، لهذا فإن بيرلمان وتيتيكا

يعتبران أن الاستعارة "لا يمكن تحليلها تحليلًا حجاجيًا إلا من حيث هي تمثيل تكثف، فهو موجز، ووجه الكثافة فيه والإيجاز الاندماج الحاصل بين أحد عناصر الموضوع وأحد عناصر الحامل اندماجًا لا يمكن معه معرفة أي العنصرين هو الموضوع وأيهما الحامل، وهو ما يحتم علينا أن نستجد بأحد السياقين المقالي أو المقامي لكي نفهم" ¹⁸ هذه العلاقة التكتيفية الحجاجية.

ولتوضيح هذه العلاقة أكثر نورد مثالًا من مرافعة محامي الدفاع عن موكله المتهم بجريمة القتل، إذ يقول: سيدي الرئيس، تأكد أنكم إذا حكمتكم على موكلي بالسجن المؤبد فإنكم تحكمون عليه بالموت، فأنتم بقراركم هذا تقضون على مستقبله، بل تعدمون حياته، فما ذنبه؟ إذا كان زهرة يانعة تفتحت بين أشواك، فالسجن بالنسبة لموكلي كالموت بل كالليل والنهار ...

لنمثل لهذه العلاقة بالرسم التالي:

السجن بالنسبة للمتهم كالليل بالنسبة للنهار:

الحامل	الموضوع	الصلة
السجن	الليل	حزن، تشاؤم، نهاية.
النهار	المتهم	تفاؤل، أمل، بداية.

ويمكن أن نشق الاستعارات التالية:

(أ، د) ← "السجن نهار"

(ج، ب) ← "ليل المتهم"

وعليه، تبدو لنا "أن الاستعارات من شكل "أ" هي "ج" الأكثر تضليلاً، لأننا نميل إلى اعتبارها تطابقاً، في حين لا نستطيع فهمها بطريقة مرضية إلا بإعادة بناء التناسب بإضافة الأطراف المحذوفة، وقد نزيد من تكثيف الاستعارة بتوليدها من التقابل بين صفة ما والواقع الذي تنطبق عليه"¹⁹، فتغدو بذلك الاستعارة أكثر إقناعاً من التمثيل، كونها تحدث خطأ بين الحامل والموضوع وبما هي اختزالية إذ "تحتاج الاستعارة بالوصل بين مجالين متغايرين، فالثاني، الحامل، يُدخل في الأول بنية ليست تظهر للوهلة الأولى، لكنها اختزالية بما هي تبرز عنصراً مشتركاً على حساب عناصر أخرى، أعني مشابهة بإخفاء الاختلافات"²⁰. فهذا التفاعل الحجاجي بين الحامل والموضوع يستدعي استعارات أخرى لا حصر لها ينتجها السياق المقامي والمقال للخطاب.

نستخلص مما تقدم أن، الاستعارة تركز على المستعار منه أي الحامل، الذي يمثل مقصدية المتكلم، لتحقيق وظيفة الإقناع إذ هو الذي يمنحها طاقة حجاجية من خلال توظيفها في سياق معين، وبالتالي يمكن أن نعتبرها ذات قوة حجاجية.

4-المظهر التداولي: ويتجلى المظهر التداولي أيضاً في المرافعة التي وقفنا

على حيثياتها في مجلس قضاء تيزي وزو، من خلال تعدد خطابات الأطراف المحاورة وتفاعلها، فكان ركح المحكمة مثلما شبهه جिरار كورني ومن قبله

أنثييون (411-480) ق.م، -وهو أحد المتمرسين في الخطاب القضائي اليوناني والمنظرين المتأخرين-، عبارة عن مسرحية متعددة الأصوات. فتعددت الأصوات من خلال تعدد الشخصيات المشاركة في المرافعة: فوجد صوت القاضي (ق) وصوت كاتبة الضبط وصوت محامي الإدعاء (ع.ح) وصوت محامي الدفاع (ك.م) وصوت محامي الطرف المدني (ك.ش) وصوت المدعي (ب.م) والمدعى عليه أي المتهمون (س، ع، ص)، إضافة إلى أصوات الشهود وكل من له علاقة بالقضية من قريب أو بعيد وصوت الأشخاص الذين استدعاهم القاضي من أجل التحقيق في القضية.

فمثلا، بعدما استدعى القاضي المحلفين ثم قام بإجراء القرعة لاختيار اثنين من المحلفين يشاركان في المرافعة القضائية وفقا للمادة 284 من قانون الإجراءات الجزائية، وبعدها يتأكد القاضي من هوية المتهمين ويتأكد من وجود محاميهم (محامي الدفاع)، يفتتح الجلسة:

وعليه، نجد أولا صوت القاضي يفتتح الجلسة ومن ثمة صوت المحلفين:

ق: تفضلوا بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، الجلسة مفتوحة.

ثم نادى القاضي على المتهمين بأسمائهم: (س، ع، ص)، ثم نادى على المحامين ثم أجريت القرعة الخاص بالسادة المحلفين، وبعدها تلى القاضي نص القسم ثم أقسم المحلفون.

بعدها، أصدر القاضي أمرا لكاتبة الضبط بسرد أحداث وحيثيات ووقائع القضية والتذكير بأطرافها من المدعي والمدعى عليه والشهود وهو ما يصطلح عليه قانونيا بتلاوة قرار الإحالة الصادر عن غرفة الاتهام بما يتضمنه من وقائع القضية منذ تحريكها وكذا ملابساتها، أشخاصها وكل ما يتعلق بالدعوة.

وعليه، فخطاب القاضي هو خطاب استدراجي يسعى من خلاله إلى استدراج المتهمين للاعتراف بالجرم أو التهم الموجهة إليهم، وكما أنه خطاب تأويلي يقوم من خلاله القاضي بتأويل الأحداث والوقائع وتكييفها مع النصوص التشريعية ليصل إلى نتيجة أو حل نهائي للقضية وينطق بنص الحكم، لذا يعتبر خطاب القاضي خطابا فاصلا بين هذه الخطابات.

وأنه خطاب تداولي ينتج عنه تفاعل حجاجي بين الأطراف المشاركة فيه ويتجسد في تلك المناقشات والمرافعات التي يسعى من خلالها كل طرف إلى تحقيق غاية ما.

5. خاتمة: ويبدو أن الحجاج في الخطاب القضائي، يبحث فيما هو نسبي ومحمّل، ويكون في الأمور المتنازعة عليها، فيبقى المتهم بريئا إلى أن تثبت التهمة أو تنفى عنه بحكم صادر من القاضي، يكون تبعا للحجج المقدمة من طرف المحامي الذي سعى بها إلى إثبات براءة موكله. وهذا ما أكدّه شايم بيرلمان في مصنفه، حيث أنه يؤكد على أن غاية البلاغة الجديدة ليس البحث عن الحقيقة

بقدر ما تبحث عن حلول لمقترحات وتكييف للمعطيات وتحقيق الإذعان،
والوصول إلى نتيجة أو حكم حتى وإن كان لا يرضي
الطرفين.

ويبقى مبحث الحجاج في الخطاب القضائي ثريا خاصة مع ما تعرفه الدراسات
اللسانية الحديثة من تطورات وتعدد في المقاربات وطرق في تناول الموضوعات.
6. قائمة المراجع:

- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، المغرب، ط1،
2006.
- الحسن بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ادار الكتاب الجديد
المغرب، ط1، 2014.
- أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، تر: رضوان العصبه، أفريقيا الشرق
المغرب، ط1، 2017.
- حامد الشريف، فن المرافعة وصناعة المحامي ووكيل النيابة المترافع أمام
المحاكم الجنائية، ا دار الفكر الجامعي، مصر، (د،ط)، 1994.
- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر، ط1،
2009.
- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ترجمة: عمر أوكان، أفريقيا
الشرق المغرب، ط1، 1994.

- شريفة استستية، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1996.
- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006.
- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، مسكيلاني للنشر والتوزيع، تونس ط1، 2011.
- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين تونس، ط1، 2011.
- عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب: بحوث ومحاولات، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2015.
- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، أفريقيا الشرق، المغرب ط2 2002.
- محمد مكسي، استراتيجيات الخطاب الديدكتيكي، منشورات رمسيس المغرب، (د، ط)، 1998.
- Jean-Michel ADAM, Les textes : types et prototypes,
édition, Armand colin, 2008.-2eme

Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, les éditions

minuit, paris, 1980 –de

8. هوامش :

-
- ¹ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1996.
 - ² رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ترجمة: عمر أوكان، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1994، ص67.
 - ³ محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، أفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص21.
 - ⁴ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2006، ص65.
 - ⁵ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص65.
 - ⁶ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص123.
 - ⁷ عبد الله صوله، في نظرية الحجاج، مسكياتي للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2011، ص13.
 - ⁸ شريفة استتسية، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ص521.
 - ⁹ عز الدين الناحج، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب: بحوث ومحاولات، مركز النشر الجامعي، تونس 2015، ص118.
 - ¹⁰ محمد مكسي، استراتيجيات الخطاب الديدكتيكي، منشورات رمسيس، المغرب، 1998، ص23.
 - ¹¹ خليفة بوجادي، (2009) في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، ط1، الجزائر، 2009، ص87.
 - ¹² Jean-Michel ADAM, Les textes : types et prototypes, 2eme édition, Armand colin, 2008 . p104.
 - ¹³ حامد الشريف، فن المرافعة وصناعة المحامي ووكيل النيابة المترافع أمام المحاكم الجنائية، ا دار الفكر الجامعي مصر، 1994، ص96.
-

- ¹⁴ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، الدار البيضاء، 2006، ص104.
- ¹⁵ Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, les éditions de minuit, paris, 1980 , p 95
- ¹⁶ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص104.
- ¹⁷ عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، تونس: مكتبة علاء الدين، ط1، تونس، 2011، ص127.
- ¹⁸ عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص61، 60.
- ¹⁹ الحسن بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ادار الكتاب الجديد، ط1، المغرب، 2014، ص23.
- ²⁰ أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، تر: رضوان العصبة، أفريقيا الشرق، 2017 ط1، المغرب، ص218.